كبيشة بنت معن

قصص النساء في القرآن

[16] الرهينة: كبيشة بنت معن

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا} [النساء: ١٩].

* * *

موجز القصة:

يقول الله تعالى محدثاً عن القرآن الكريم:{ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا } [الإسراء: ٩]؛ وفي قصتنا آيات كريمة جاءت بشرى لسيدة مؤمنة من نساء الصحابة في سورة عظيمة اهتمت بشأن النساء وأحكامهن، وسُميت باسمهن فكانت سورة النساء التي أنزل الله سبحانه وتعالى فيها حقوقاً للمرأة كان لا يعرفها المجتمع الجاهلي، ولا حتى المجتمعات الأخرى. ولنزول هذه الآيات الكريمة في تلك السيدة المؤمنة من نساء العهد النبوي قصة نتلو عليكم تفاصيلها في السطور التالية.

كان في العهد النبوي سيدة مخلصة مؤمنة تدعى كبيشة بنت معن؛كانت كبيشة بنت معن تعيش مع زوجها أبو قيس حياة هادئة سعيدة لا يعكر صفاءها شيء؛ فقد كان الزوج محباً لزوجته مقدراً لها، وكانت هي تبادله المحبة بأكثر منها وتخلص له على أجمل وأكمل ما يكون؛ فقد ألف الإسلام بينهما وجمعتهما صحبة الدين، فزادهما الإيمان والعبادات قرباً لبعضهما البعض.

صحيح أن الله لم يرزقهما أولادا لكنهما كانا سعيدين وراضيين بحكم الله تعالى لهما؛ فقد كان لأبي قيس أولاد من زوجة سابقة فلم

يفارق كبيشة لعدم إنجابها بل أحبها وأحب عشرتها.

الزوجة الوفية:

وذات يوم مرض زوج كبيشة مرضاً مفاجئاً ولم يعرفوا له دواء فحزنت كبيشة عليه حزنا شديدا ولازمت فراشه تمرضه، وتواسيه وتخفف عنه آلام المرض؛ فقد كانت كبيشة تعرف عظم حق الزوج على زوجته؛ فقد قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم :**"إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها، وأطاعت زوجها، وحفظت فرجها، قيل لها ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت -** [1].

وكانت كبيشة لا تُرى إلا جالسة بجوار زوجها ترعاه وتسهر على راحته وتداويه وتدعو له بالشفاء العاجل حتى لا يتركها وحيدة فليس لها من بعده أحد إلا الله تعالى، وكانت كبيشة قد سمعت من أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:**"أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة -** [2].

وفجأة وعلى غير توقع، تدهورت صحة أبي قيس زوج كبيشة تدهوراً كبيراً وما لبث الزوج المخلص أن مات وترك زوجته لعادات وتقاليد المجتمع الجاهلي الذي كان يظلم المرأة ظلماً بينا!.

وعاشت كبيشة وحيدة في دار زوجها، تذكر حُسن معاملته لها، وحسن عشرته معها وأخلاقه الكريمة التي كان يتمتع بها وتخشى من الأيام القادمة حيث لم يكن للمرأة وقتها حق في ميراث من زوجها ولا حتى من أبيها، بل كانت هى نفسها تورث لأقارب الزوج خاصة

(1) حسن لغيره: أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (306/4).
(2) حسن: أخرجه الترمذي (1161) في الرضاع.

إذا كانت مثل حال كبيشة ليس لها من زوجها أولاد!

كُبيشة تصبح رهينة:

ولم تمض أيام قليلة، حتى جاءت اللحظة التي كانت تخشاها كبيشة حين جاء ابن زوجها من امرأة أخرى، وطرح على كبيشة ثوبه وكان هذا من عادات العرب في الجاهلية وكان لرمى الثوب هكذا معنىً خطير! فقد كان هذا هو العُرف في الجاهلية وكان هذا له معنى واحد ومعناه أنها أصبحت إرثاً من حق ابن الزوج بعد موت أبيه!!

ويقول ابن عباس شارحاً لنا هذا الوضع الغريب: كانوا في الجاهلية، إذا مات الرجل عن زوجته جاء قريب الزوج خاصة ابنه من إمرأة أخرى فألقى ثوبه على تلك المرأة فمنعها من الناس وحبسها وحدد إقامتها، فإن كانت جميلة تزوجها! وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها، وإن شاء زوجها غيره وأخذ مهرها.

عادات جاهلية بالية:

لقد كانت تلك عادة العرب في الجاهلية قبل الإسلام كانوا يجعلون النساء ميراثا لهم، كما تورث الأموال والعبيد، يتصرفون فيهن كما يشاءون ولاحق للمرأة أن تتذمر أو تشكو أو حتى تهرب من هذا الوضع المشين؛ جلست كبيشة حبيسة في دار زوجها، تفكر ماذا تفعل..؟

ثم قالت لنفسها: إن هذه العادات كانت قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بدين الإسلام، لقد جاء الإسلام ليرفع الظلم عن المظلومين؛ حرم وأد البنات، وساوى بين الرجل والمرأة في

التكاليف والعبادات، وجعل مقياس التفاضل بين الناس التقوى والعمل الصالح وبالتأكيد فإن هذا الوضع الظالم المهين للمرأة لن يرضى الله ولا رسوله؛ ووجدت كبيشة نداء بداخلها يحثها على القيام وعدم الاستسلام لهذا الواقع الأليم فقالت لنفسها: قومي يا كبيشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعرضي عليه مشكلتك ولا تأبهي للحبس الإجباري الذي فرضته عليك العادات والتقاليد.

كبيشة تعرض مشكلتها:

وهناك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، جلست كبيشة تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم في أمرها، وأمر كل النساء أمثالها؛ دخلت كبيشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرضت عليه مشكلتها؛ قالت: يا رسول الله، مات زوجي، فلا أنا ورثته ولا ابنه تزوجني، أو تركني أتزوج غيره، بل تركني محبوسة في داري ورمى على ثوبه كما هى العادة قبل الإسلام أيرضيك يا رسول الله أن هذا وضع المرأة بعد أن أكرمها الله وحرم وأدها وأوصيت أنت عليها؟

سكت رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ثم قال لها: يا كبيشة اذهبي، واجلسي في بيتك حتى يأتي أمر الله؛ فقد كان رسول الله لا ينطق في حكم جديد إلا بوحي من الله عز وجل فيقول تعالى:{ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ} [النجم: ٣ - ٥].

قرآن كريم ينتزل في أمر كبيشة:

لم يطل انتظار كبيشة في بيتها طويلاً؛ فقد حكم الله تعالى في قضيتها وقضية كل النساء أمثالها، ونزل قول الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات ينادى بإكرام المرأة المؤمنة ومناصرتها ضد

العادات والتقاليد الجاهلية ويأمر بحق المرأة في الميراث، وينهى عن الاستيلاء على رزقها وميراثها رغماً عنها؛ بل ويعطيها أهليتها المالية الخاصة ويحرر لها ذمتها المالية ويسبق الإسلام بذلك كل الشرائع الأخرى والقوانين الوضعية التي إما ضيقت على المرأة أو أفرطت في أمورها؛ قال الله عز وجل: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا} [النساء: ١٩].

حقوق للمرأة لم تكن من قبل:

وبهذه الآيات الكريمة أبطل الإسلام ماكان في الجاهلية، وحرم على ابن الزوج أن يرث زوجة أبيه أو أن يتزوجها، وحرم زواج أبناء الزوج من زوجة أبيهم، وأعطى المرأة حريتها في الزواج بعد موت زوجها وقرر لها الحق الطبيعي في ميراث زوجها إن كان له مال، بل أنه أعطى لها ربع ميراث زوجها إذا لم يكن له أولاد. وهكذا أنصف الله تعالى كبيشة ومعها كل النساء المسلمات اللاتي كن على مثل حالها فلقد حرم الله على نفسه الظلم وحرمه بين عباده.

تمت القصة بعون الله تعالى

* * *